

المدى التداولي عند سيبويه

The pragmatist Range at Sibawayh

إعداد الدكتور/ غازي جاسم آل مشهد

دكتوراه النحو والصرف وعلم اللغة، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية

Email: ghazi.mashhad@hotmail.com

الملخص:

تهدف هذه الدراسة، إلى ملاحظة مدى اقتراب درس النحوي عند علماء اللغة كـ (سيبويه) من المنهج الدرس اللغوي الحديث وخصوصا التداولي، كما تهدف إلى الوقوف على حرص (سيبويه) على معنى الكلمة أو التركيب ضمن الاستعمال والسياق، إضافة إلى محاولة ملاحظة مدى إن كان ملتفتا إلى الجوانب غير اللسانية في التعاطي مع المعنى اللغوي أم أنه يركز على البعد اللغوي فحسب.

وتكمن أهمية البحث في أنه يعمل على الدفع للدرس اللغوي باتجاه الدراسات اللغوية الحديثة التي تُعتبر مناهج متطورة تسهم في فهم اللغة بشكل أكبر من المناهج القديمة، ومن ضمن هذه المناهج التي قدمناها في هذه الدراسة هي المنهج التداولي، وهو يشجع على معاودة النظر في مناهج البحث للتراث اللغوي العربي القديم، ومن ثم العمل على إشكالات بحثية لغوية جديدة، تتضمن آليات بحثية لغوية وأخرى غير لغوية، ومن ثم تكون معالجة معنى الكلمة أو التراكيب اللغوية عبر المعطيات المختلفة، سواء السياقية المرتبطة بالخطاب، أو المعطيات المقامية المرتبطة بالموقف الذي يتم فيه الإنتاج اللغوي، إضافة إلى كل الملابسات التي ترتبط بهذا الموقف الإنتاجي، ولعل مثل هذا البحث أن يكون مشجعا لمعاودة النظر في إدخال المنهج التداولي في المراكز التعليمية المختلفة لا سيما الأروقة العلمية التي تحاول مواكبة تطور العلوم المختلفة.

وتم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي في هذا البحث، حيث استعرضنا بعض الجهد الذي قدّمه (سيبويه) رغبة في تلمس البعد التداولي عنده عبر مجموعة من النقاط حيث وقفنا عند المستوى المعجمي للكلمات وكذلك المستوى التركيبي وثم تناولنا المتكلم والمخاطب من حيث تأثيرهما في الإنتاج اللغوي وفهمه، فوقفنا على بعض الكلمات أو التراكيب التي استعرضها (سيبويه)، ولاحظنا كيف يتعاطى في التعامل معها لفهم معناها وملاحظة مدى اقتراب ذلك من المنهج التداولي.

الكلمات المفتاحية: المدى، التداولية، المنهج، المتكلم، المخاطب، سيبويه، لسانية، التركيبي، المعجمي، اللغوي، الإعرابي، التخمين.

The pragmatist Range at Sibawayh

Abstract:

This study aims to note the extent to which the grammatical lesson of linguists such as (Sibawayh) approaches the approach of the modern linguistic lesson, especially the Pragmatic one. Paying attention to the non-linguistic aspects in dealing with the linguistic meaning, or does it focus on the linguistic dimension only.

The importance of the research lies in the fact that it works to push the language study towards modern language studies, which are considered advanced approaches that contribute to understanding the language more than the old approaches, and among these approaches that we presented in this study is the pragmatist

approach, and it encourages a reconsideration of research methods for heritage The Ancient Arabic linguist, and then work on new linguistic research problems, including linguistic and non-linguistic research mechanisms, and then the treatment of the meaning of the word or linguistic structures through various data, whether contextual related to the discourse, or metadata related to the situation in which linguistic production takes place, In addition to all the circumstances that are associated with this productive position, and perhaps such research would be encouraging to reconsider the introduction of the pragmatist approach in the various educational centers, especially the scientific corridors that try to keep pace with the development of different sciences. The analytical descriptive approach was adopted in this research, where we reviewed some of the effort made by (Sibawayh) in order to touch his pragmatic dimension through a set of points, where we stopped at the lexical level of words as well as the syntactic level, and then we dealt with the speaker and the interlocutor in terms of their impact on linguistic production and understanding, so we stopped On some of the words or structures that (Sibawayh) reviewed, and we noticed how he deals with them in order to understand their meaning and notice how close this is to the pragmatist approach.

Keywords: Range, volatility, approach, speaker, addressee, Sibawayh, linguistic, structural, lexicographic, grammatical, guessing.

1. المقدمة:

عمد علماء اللغة القدامى إلى إحاطة علم النحو بعناية كبيرة، وبرز بين هؤلاء أعلام مهمون أثروا في الساحة العلمية اللغوية، ومنهم العالم النحوي المشهور (سيبويه) الذي عاش في القرن الثامن الميلادي، وقد كان تأثيره تجاه اللغة العربية في أبواب النحو والصرف خاصة، وله كتاب يُعرف بـ (الكتاب).

لقد كان (سيبويه) ضمن مدرسة البصريين التي كانت تركز على المادة النحوية والصرفية بشكل كبير مما أسهم في ترسيخ الكثير من القواعد إلى يومنا هذا، ولم تكن عنايته مقتصرة على ضبط أواخر الكلمات أو العلامات الإعرابية الأخرى، أو ما يحدث على بنية الكلمة من تغيرات، بل كان له رأي في المعنى الاستعمالي للكلمات أو التراكيب إلى حد ما، حيث لم تكن علاقة النحو بالمعنى خافية، فهذا ابن خلدون (808هـ) يقول متحدثاً عن علم النحو: "إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة" (ابن خلدون، 2002م، ص545).

لم يكن عمل سيبويه مجرد بحث علمي نظري، بل كان عملاً ميدانياً، فكان يجمع كلام العرب ويجعل شواهد على قاعدة ما، حتى قيل إن بعضهم تتبّع "على سيبويه الأمثلة فلم يجدوه ترك من كلام العرب إلا ثلاثة أمثلة: منها الهنّذلع، وهي بقلة. والدرداقس، وهو عظم في القفا. وشمصير، وهو اسم أرض" (سيبويه، 1988م، ص7)، والحال أن سيبويه كان يحاول استكشاف الصناعة العربية للغة على أرض الواقع، ويفهم ذلك عند كثير من مواطن كلامه، كقوله: "وجعلوا النون مكسورة كحالها في الاسم، ولم يجعلوها حرف الإعراب إذ كانت متحركة لا تثبت في الجزم. ولم يكونوا ليحذفوا الألف لأنها علامة الإضمار والتنثنية في قول من قال: أكلوني البراغيث" (سيبويه، 1988م، ج1، ص19)، فهو يقول (وجعلوا) و (ولم يجعلوها) و (ولم يكونوا ليحذفوا)، فهي عبارات توضّح أنه يبحث عن صناعة العرب، فجعلوا هذا وحذفوا ذاك، ومن ثم فهو يقدّم ما وصل إليه من كلام العرب.

لم يكن علماء الغرب بعيدين عن فكرة تأثير الدرس النحوي في فهم المعنى، فقد كانوا يعتبرون النحو "على درجة كبيرة من التجريد حتى أنه عدّ بالفعل وراء كل أفق للاكتشاف" (جيوفري ليتش، 2013م، ص9)، وبعد سنوات عديدة من المخاض العملي لهذه المسألة، تطوّر الدرس اللغوي، حتى أصبح فيه النحو ضمن حلقات متشابهة، تشتمل على الكثير من الجوانب اللغوية والجوانب غير اللغوية، حيث يسهم جميعها في اكتشاف المعنى ومقاصد المتكلم، ولا سيما بعد دخول النظرية التداولية ضمن دائرة الدرس اللغوي¹، ومع هذا التطوّر المفيد في المعرفة، إلا أن الكثير من مراكز التعليم (المدارس، والمعاهد، والجامعات)، كانت ومازالت ترى الأهمية الكبيرة للدرس النحوي في حدود الجوانب اللغوية المرتبطة بحالات الإعراب والبناء وعلامتهما، دون الالتفات إلى علاقة النحو بالمعنى من ناحية بشكل واسع وكان الاقتصار على ربط النحو بالمعنى في بعض الموارد القليلة، وارتباط المعنى بالجوانب اللغوية وغير اللغوية من ناحية ثانية.

ويحاول هذا البحث قراءة المدى التداولي في بعض ما قدمه (سيبويه) فيما يرتبط بالمعنى، أي مدى علاقة ارتباط الدرس النحوي عنده بالمنهج التداولي.

¹ انظر: جيوفري ليتش، 2013م، مبادئ التداولية، من ص9 إلى ص15.

1.1. هدف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى إيضاح أهمية تحفيز المراكز التعليمية في العالم العربي لتجديد النظر إلى الدرس اللغوي، فليس من المنصف أن يتم الاقتصار على ما وصل إليه السابقون بحيث يكون وقوفنا عند أبحاثهم مجرد ترديد وتجديد ظاهري، بل المفترض أن نفيد من الدراسات الحديثة. لقد بذل علماءنا اللغويون القدامى جهداً كبيراً لا يستهان به، ولكن ما نملكه الآن من آليات، تساعد على تطوير الدرس اللغوي أكثر مما كانوا يملكونه، حيث نرى أن المفترض أن يكون ما قدموه مادة ندرسها للتطوير، لا أن يكون مجرد إثبات صحة ما نقلوا وكأنه تسليم بما ذكره بشكل مطلق.

التمهيد:

1-التداولية.

يمكن تعريف التداولية بأنها علم دراسة استعمال اللغة بأبعادها اللسانية وغير اللسانية، في خطاب تواصل، من أجل الوصول إلى المعاني المقصودة.

ويمكن أن نلاحظ الأمثلة التي يستعرضها (سيبويه) ضمن إطار تواصل، فننصّر لها سياقاً نصياً ومقاماً منتجاً لها، وهذا ما يحاول أن يفعله في كثير من الأحيان، حيث يفترض سياقاً ما، وعلى إثره يناقش التركيب الذي يقدمه للقارئ. إن افتراض سياق ما مفيد في تقريب الفكرة، ومن هنا فإن (سيبويه) يعمل على ربط معنى محدد للجملة التي يقدمها ضمن سياق يفترض فيه أن العرب يستعملون فيه ذلك التركيب، وهذا ما يمكن اعتباره جزءاً من التداولية، ولكنه ضمن مدى تداولي أولي؛ لأنّ المنهج التداولي لا يقف عند افتراض قوالب تركيبية لمعان ما ضمن افتراض واحد ومحدد، إنما يقف على أمور كثيرة مع كل تركيب، فيحاول النظر إليه عبر معطيات لسانية وأخرى غير لسانية، وهذه مرحلة متقدمة لم يعمل عليها (سيبويه) ولا الذين سبقوه أو لحقوه حتى وقت قريب كمنهج قائم بذاته.

لقد عمل بعض علماء الغرب على التعمق في البحث عن معانٍ للتركييب المنتجة، ليس لأنّ لها معانٍ محددة، وإنما لأنّ مقصود المتكلم موجود فيها، ولذا ينبغي البحث عن مقصود المتكلم من تلك التراكيب عبر البحث عن كل ما يسهم في معرفة مقصود المتكلم، سواء عبر الجوانب اللغوية أو غير اللغوية. ولذا يعتمد المحلل التداولي إلى آليات تحليل لغوية أكثر مما كان يشتغل عليها علماء اللغة القدامى من عرب وغربيين. فمثلاً يعمل المحلل التداولي على:

الوقوف على الأفعال الكلامية لـ (أوستين) الذي طوّرها (سيرل)، وكذلك التحليل وفق قواعد غرايس المعروفة بـ (مبدأ التعاون) وتباعاً يتم العمل على الاستلزام التحادثي الذي يعني مخالفة تلك القواعد أو إحداها، كما يشتغل التداولي على تحليل الضمني ويحلل عبره المضمّر والافتراض المسبق، ومما يهتم به العامل على المنهج التداولي هو البحث في القصدية التي ينطلق منها المتكلم، كما أنه يلتفت إلى الجوانب غير اللغوية الأخرى حيث يلتفت إلى أمور خارجة عن اللغة تماماً كنبرة الصوت وحركات اليد والجسد أثناء إنتاج العبارة، ويمكن القول بأنّ المحلل التداولي لا يقتصر على الجانب المعجمي أو التركيبي أو الدلالي، فهو يحاول أن يجيب عن مثل الأسئلة التالية:

من المتكلم؟

ومع من يتكلم؟

وكيف يتكلم؟

ولم يتكلم بهذه العبارة؟

ولم تكلم بذلك في هذا الوقت وهذا الموقف؟

فالإجابة عن مثل هذه الأسئلة، هي عناية بالجوانب غير اللغوية؛ وذلك يعكس مدى الأهمية التي توليها التداولية لمعرفة المتكلم وما يتعلق به من عمر وثقافة وظروف يمر بها وجنسه ذكر أم أنثى، وحتى أدق التفاصيل، فهل المتكلم غاضب؟ أم أنه فرح؟ وما حالته من حيث الجوع والعطش؟ وهكذا بالنسبة للمخاطب، وكذلك بالنسبة لطريقة أداء المنتج اللغوي، ومعرفة سبب إنتاجه والتوقيت الذي أنتج فيه، فضلا عن ثقافة المجتمع المحيط بالمتكلمين، والعقيدة التي يدينون بها، والنظام السياسي الذي ينتمون إليه، وهل هما من بيئة ثقافية ودينية وسياسية اجتماعية واحدة أم أنهما مختلفان، فكل ذلك من الأمور غير اللغوية التي يعنى بها المحلل التداولي، وهذا ما لم نلاحظ عناية علماء اللغة القدامى العناية به، لاسيما علماء النحو، فقد اقتصرنا في معرفة المعنى ضمن البحث النحوي والصرفي، كما هو حال (سيبويه).

2- علاقة التداولية بالعلماء العرب القدامى:

قد يتساءل البعض عن علاقة العلماء العرب القدامى بالتداولية بشكل عام لا سيما علماء النحو مثل (سيبويه)، حيث أنه مصطلح جديد، ويمكن التعليق على ذلك من جهتين؛ أما الجهة الأولى فلسنا مع من يحاول إصاق المنهج التداولي بعلماء اللغة العربية القدامى (سيبويه)؛ لأنه مصطلح جديد وقد أسس في بلاد الغرب لا سيما عند مؤسسة (أوستين)، فقد أسس الجانب النظري، ثم قدم نماذج تطبيقية من ناحية ثانية، وقد أطلق على هذه النظرية بـ (نظرية أفعال الكلام)، وتواصل هذا المنهج حتى جاء تلميذه (سيرل) ليطورها، وبالتالي فنحن لا نلصق التداولية بعلماء اللغة العربية القدامى من الناحية النظرية، ولكن وجدنا شيئا من التداولية في بعض التطبيقات التي مارسوها، وهذا حال من يمارس فعليا جانب من علم ما دون أن يلتفت إلى أسس نظرية، ولا يختلف المجال اللغوي عن غيره في ذلك، فقد يمارس علماء اللغة أي جانب تطبيقي على لغتهم دون المعرفة النظرية لذلك الجانب التطبيقي، وهذا ما وجدنا عليه مثل (سيبويه) إذ يمكن تملّس البعد التداولي في بعض ما قدمه في (الكتاب) دون أن يعرف شيئا اسمه التداولية.

وتبقى أهمية الانطلاق البحثي على أساس نظري؛ لأنه يضبط الجانب التطبيقي وهو الذي يوجه البحث اللغوي باتجاه معين للوصول إلى نتائج مفيدة، كما صنع (أوستين) وتلميذه (سيرل)، ومن ذلك انطلقت الكثير من الدراسات انطلاقا من ذلك الأساس النظري ضمن المقاربات التداولية، ومن هنا، فإن العلاقة التي ندعيها لـ (سيبويه) هي علاقة تطبيق وممارسة منه لجوانب تداولية في بعض دراسته للغة، وجاءت هذه الدراسة لملاحظة هذه المسألة والمدى التداولي لدى (سيبويه).

المدى التداولي عند سيبويه.

يتمثل البحث عن المعنى عند (سيبويه) عبر عدة مستويات، فهناك المستوى المعجمي وهو البحث عن جذور الكلمة وهذا مرتبط بالمستوى الصرفي أيضا، كما يتمثل بحثه عبر المستوى التركيبي وهو المعنى بإنشاء الجمل، وكان قد أولى الجانب

الإعرابي عناية كبيرة، وجعل جزءا كبيرا من بحثه مقتصرًا على عليه، وهو الجانب الشكلي، حتى إنه قد يهمل توضيح أثر ذلك في توضيح المعنى، وعلى سبيل المثال قوله:

"ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، قولك: هَلَّا خيرا من ذلك، أو غير ذلك. كأنك قلت: أَلَّا تفعل خيرا من ذلك، أو أَلَّا تفعل غير ذلك، وهَلَّا تأتي خيرا من ذلك. وربما عرضت هذا على نفسك فكنت فيه كالمخاطب، كقولك: هَلَّا أفعل، وأَلَّا أفعل. وإن شئت رفعت؛ فقد سمعنا رفع بعضه من العرب، وممن سمعه من العرب. فجاز إضمار ما يرفع كما جاز إضمار ما ينصب" (سيبويه، 1988م، ج1، ص268)، فهذه التفاتة تشير إلى أن ضبط الحركات في الكلام تعتمد على استعمال العرب، ولم نلاحظ تأثيرها في توجيه المعنى، فالمعنى قد يكون واحدا وإن اختلفت الحركات، وهذا مهم في فهم طريقة العرب في توضيح المعنى دون إبداء الاهتمام الكبير في الحركات الإعرابية، ونستنتج من ذلك، أنَّ المعنى الحقيقي لهذه العبارة يكمن في ذهن المتكلم، فيعبر عنه بأسلوبه وقد يكون من طبيعة كلامه الرفع أو النصب، فإذا رفع أو نصب وكانت له كفاءة عالية في إيضاح المعنى دون الاعتماد على الضبط الإعرابي أحيانا، وإذا كان المقام يسهم في الإيضاح أيضا، وإذا كانت المخاطب مستحضرا كل ملابسات إنتاج التركيب اللغوي، وكذلك حالة المتكلم النفسية، ومستواه الثقافي إلخ، فسيكون ذلك كفيلا لإبراز المعنى المراد وإيضاحه ولو تغيرت الحركات الإعرابية، وهذا من صميم البحث التداولي، وهناك جانب آخر من بحثه مرتبط بالمستوى التركيب الذي يُعد ضمن دائرة البحث التداولي أيضا، وهو الاستعمال الذي يضفي على الجملة المعنى الذي يريده المتكلم، أي أن العرب تستعمل هذا التركيب أو ذاك في شأن ما، وهذا جوهر البحث التداولي حيث يعني فهم المعنى المقصود عبر الاستعمال، حتى إنه ردّ مثال أستاذه (الفراهيدي) عندما ذكر مثلا لا تقول به العرب، أي لا تستعمله، حيث علّق (سيبويه) على جملة: ما أحسنَ عبدَ الله، فقال: "زعم الخليل أنه بمنزلة قولك: شيءٌ أحسنَ عبدَ الله، ودخله معنى التعجب. وهذا تمثيل ولم يُتكلم به" (سيبويه، 1988م، ج1، ص72)، فـ (سيبويه) يردّ التمثيل الذي ذكره (الفراهيدي)، وكانت حجته عدم استعمال العرب له.

ويمكن ملاحظة البعد التداولي في كتاب سيبويه (الكتاب) عبر مناقشة بعض الأمثلة التي تعرّض لها على المستوى المعجمي، والمستوى التركيبي، وسنلاحظ أيضا شيئا من البعد التداولي عند وقفنا عند تخمينه في فهم المعنى، إضافة إلى عنايته بالمتكلم والمخاطب:

1- المستوى المعجمي.

تتضح الإشكالية في أن (سيبويه) يعطي الكلمات طابعا توقيفيا، ومن هذا المنطلق، فهو يبتعد عن مسألة الاستعمال، ويجعل الأثر لتحديد المعنى في الجانب اللغوي لا في الاستعمال، وهذه إشكالية حقيقية تتمثل في البحث عن المقصود بدقة موافقة الكلمة للواقع أو المعنى، وقد أجابت التداولية بأن دقة المعنى يرتبط بالاستعمال²، فمثلا يقول "بنفست: (التلفظ هو تحريك اللغة بواسطة فعل فردي استعمال) ... [ويقول] أنسكومبر ودكرو (التلفظ سيكون بالنسبة لنا نشاط لغوي يمارسه المتكلم في الوقت الذي يتكلم فيه) " (أوريكيوني، 2014م، ص74)، أما (سيبويه) فقد قسّم الكلام من خلال علاقة يفترض أن تكون توقيفية بين اللفظ والمعنى، حيث يقول:

² انظر: وليم جيمس، 2014م، البراغماتية، ص 180 و 181.

"اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين" (سيبويه، 1988م، ج1، ص24)، ومع براعة (سيبويه) في هذا التقسيم حيث إذ قسم اللفظين اعتمادا على ما يمكن أن تملكه من المعاني، إلا أنه لم يذكر مسألة الاستعمال ومدى تأثيرها في توجيه اللفظ باتجاه معنى ما، فقد انطلق في تقسيمه على انحصار المفردات في معان محددة، ولذا قدّم لهذا التقسيم نماذج دون الالتفات إلى الاستعمال الذي قد يغيّر المعنى عدة مرات للمفردة الواحدة، فيقول ممثلاً:

"فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلس وذهب. واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق. واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة. وأشبه ذلك كثير" (سيبويه، 1988م، ج1، ص24)، وقد نسلم للنموذج الأول؛ حيث من الطبيعي أن تختلف الألفاظ باختلاف معانيها، ولكن قوله (واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق) أمر غير متفق عليه، فليس الذهاب هو الانطلاق لاسيما عند من لا يرون الترادف بين الكلمات، ويرون أنّ لكل كلمة معنى خاصاً، ونضيف إلى ذلك، أن الاستعمال يعطي اللفظ معنى من المعاني، قد يختلف في استعمال آخر، فيمكن أن تكون الكلمتان (ذهب) أو كلمة (انطلق)، بأشكال مختلفة من المعاني، ويمكن تمثيل ذلك في التالي:

يقول الرجل (أ) مقررًا ذهاب (محمد): ذهب محمد إلى المدرسة.

وقد يقول الجملة بشكل استفهامي: ذهب محمد إلى المدرسة؟

وقد يقولها معبراً عن أسفه: ذهب جهدي أدراج الرياح.

فنلاحظ في المثالين الأولين اختلاف استعمال كلمة (ذهب)، فمعناها في المثال الأول تقرير، وفي الثاني سؤال، وأما في المثال الثالث، فاختلاف معنى ذهب عما هو عليه في المثالين السابقين بشكل أكبر، حيث عنت في المثال الثالث بـ (التلاشي)، فذهبت أي تلاشت.

ومن زاوية أخرى يستبدل الرجل كلمة (ذهب) بكلمة (انطلق) فيقول:

انطلق محمد إلى المدرسة، وهنا قد يفهم قصد المتكلم على أن (محمدًا) كان متحمساً في ذهابه.

وأما جملة: انطلق محمد إلى المدرسة؟، فقد يفهم من أن (محمدًا) كسول، وأن انطلاقته للمدرسة تبعث على الدهشة.

وإذا كان الاستعمال هو الذي يعطي المعنى لهذه اللفظة أو تلك، فإنه قد تتعدد المعاني والمقاصد من الاستعمال للفظ الواحد كما لاحظنا، وهذا ما لم يشر إليه (سيبويه).

يُعتبر الدرس التداولي أكثر تطوراً في تحديد معاني الألفاظ، حيث يرى أن معنى كلمة (ذهب) لا تقتصر على مجرد الرواح فحسب، فقد تكون مزحة، وقد تعني الغضب من المتكلم أو محاولة لإثارة الفتنة ضد أحدهم، وغير ذلك من الاحتمالات التي تُحسم عبر الاستعمال، حتى أنه قد لا يكون رواح أصلاً كما رأينا في مثال (ذهب جهدي أدراج الرياح).

2- المستوى التركيبي.

لم تكن أهمية الجانب التركيبي غائبة عن (سيبويه)، فقد نبّه إلى أهمية كون التركيب معبراً بشكل مناسب عن المقصود، فمثلاً يقول:

"ولا يجوز أن تقول: بعث داري ذراعاً، وأنت تريد بدرهم، فيرى المخاطب أن الدار كلها ذراع. ولا يجوز أن تقول: بعث شائي شاة شاة، وأنت تريد بدرهم، فيرى المخاطب أنك بعثتها الأول فالأول على الولاء" (سيبويه، 1988م، ج 1، ص 393)، فقد ربط صحة إنتاج التركيب بالمعنى وأنه لا بد أن يكون التركيب سليماً ليعبر عن المقصود بشكل واضح لا غموض فيه، كما أن (سيبويه) عمل على البحث عن تراكييب العرب ومعانيها عندهم، فمثلاً، في تقديم المفعول به على الفاعل، يقول:

"وذلك قولك: ضرب زيداً عبدُ الله؛ لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ. فمن ثم كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدماً، وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم يبيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمنهم ويعنيانهم" (سيبويه، 1988م، ج 1، ص 34)، فـ(سيبويه) يشير إلى الاستعمال بقوله: (يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم يبيانه أعنى)، ففي هذا القول إشارة مهمة أنه يقدم قالبا لغويا انطلاقاً من الاستعمال، كما أننا نلاحظ أنه وصف هذا الاستعمال بـ(عربي جيد)، وهو حكم على هذا التركيب بجودته ومناسبته للمعنى، ومن ذلك أيضاً قوله:

"وإن قلت رأيت فأردت رؤية العين، أو وجدت فأردت وجدان الضالة، فهو بمنزلة ضربت، ولكنك إنما تريد بوجدت علمت، وبرأيت ذلك أيضاً. ألا ترى أنه يجوز للأعمى أن يقول: رأيت زيدا الصالح" (سيبويه، 1988م، ج 1، ص 40)، فهو يشير إلى استعمالين للفعل (رأى)؛ أما الأول فهو أن يكون متعدداً لمفعول واحد، مثله مثل الفعل (ضرب)، والثاني أن يكون معنى الفعل (رأى) مرتبطاً بالجانب القلبي والمعرفي وليس الحسي، وفي هذه الإشارة نرى جانباً من المستوى التداولي، وهو النظر إلى استعمال المتكلم وأن هذا الاستعمال يكشف عن عدّة معانٍ للكلمة غير المعنى المعجمي، ولا تقف التداولية عند هذا الحدّ للتعرف على معنى الفعل (رأى)، بل تذهب إلى أمور أخرى كالنظر إلى المقام الذي أنتجت فيه الجملة، وأسلوب الإنتاج المرتبط ببنية المتكلم أو ما يصاحبه من حركات الجسد، ملاحظة خلفية المتكلم والمخاطب الثقافية، والوضع النفسي لكليهما، وبشكل عام، فإن التداولية تعني بالمسائل اللغوية وغير اللغوية، أما (سيبويه)، فقد عني بالمسائل اللغوية، وأيضاً بالاستعمال ولكن بشكل لا يشمل الكثير من الأمور المساعدة على فهم قصد المتكلم، فالتداولية منهج له أدوات تسهم في الكشف عن المعنى بصورة أدق، ويمكن توضيح ذلك عبر التفصيل في معنى الفعل (رأى)، فقد يحمل (رأى) معاني أكثر من مسألة رؤية العين أو القلب كما في التمثيل التالي:

يقول (أ) إلى (ب): رأيته.

قد يكون المتكلم صغيراً بحيث لا يتجاوز الثلاث سنوات، ويكون المقام مقام اللعب، فسيكون المعنى أنني كشفته، أو وجدتكَ، وأني فزت عليك، وأني ذكي أستطيع التغلب عليك.

وقد يقصد المتكلم التوكيد فيما لو قال (ب) كنت هناك، فيكون معنى (رأيته) أنني أصدقك، أو لا تخف سأشهد أنك كنت هناك، وغير ذلك من المعاني التي يمكن المنهج التداولي من التوصل إليها عبر آلياته.

وإذا كان (سيبويه) يعالج معنى الكلمة ضمن جملة ما، فإنه قد يتعرّض لمعنى كلمة في حدود لا تتعدى البعد المعجمي، ومن ذلك، أنه تعرّض للحرف (ما) تمييزاً وحجازياً دون البحث عن المعاني التي ممكن أن تتولد من استعمالاتها، حيث اكتفى بقوله: "وأما بنو تميم فيجرونها مجرى أما وهل، أي لا يعملونها في شيء. وهو القياس، لأنه ليس بفعل وليس ما كليس، ولا يكون فيها إضمار. وأما أهل الحجاز فيشبهونها بليس إذ كان معناها كمعناها" (سيبويه، 1988م، ج 1، ص 57)، ولم يتتبع المعاني التي تتولد من كون (ما) ضمن خطابات مختلفة، إذ حينها قد نجد العديد من المعاني، إنما اقتصر كلامه على عمل (ما) إن كانت حجازية، وعدم عملها حال كونها تيممية³.

وقد بحث (سيبويه) جانباً مهماً في بعض التراكيب بما يوافق المنهج التداولي ولكن في صورته الأولية، إذ لم يبحث في قصد المتكلم في أي تركيب عبر ما يرتبط به من جوانب لغوية وغير لغوية تفصح عن المعنى، إنما افترض أن هذا التعبير يرتبط بمعنى محدد لا يتجاوزه، فالجانب الأولي للتداولية عنده هو محاولته ربط التركيب بالمعنى ظناً منه أنه المقصود دون الالتفات إلى الملابسات الأخرى، ومن ذلك ما جاء في حديثه عن بعض الجمل التي تم حذف فعلها، حيث يقول في "باب يُحذف منه الفعل لكثرة في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل... ومن ذلك قول العرب: (كليهما وتمرا)... كأنه قال: أعطني كليهما وتمرا. ومن ذلك قولهم: (كل شيء ولا هذا)... أي انت كل شيء ولا ترتكب شتيمة حرّ، فحذف لكثرة استعمالهم إياه" (سيبويه، 1988م، ج 1، ص 280 و 281)، فقد افترض أن هذه التراكيب تعني شيئاً واحداً وكأن ذلك أصبح متفقاً عليه بين العرب جرى هذا التركيب مثلاً معروف المعنى، بينما يمكن أن يستعمل أيّ من هذه التراكيب في مقامات مختلفة بحيث يفهم منها شيء آخر، فإذا خرجنا من المعنى المجرد للعبارة أي " (ما قد تعنيه جملة بعينها نظرياً) إلى ما يعنيه المتكلم بالفعل بهذه الكلمات في مناسبة بعينها، فإننا نصل إلى المعنى في إطار السياق أو (المعنى المنطوق)" (جيني توماس، 2010م، ص 34)

فالتراكيب الأول، يمكن أن يستعمل المقام استفهاماً، أو يكون مزاحاً، أو توكيداً، أو رغبة في المكوث مع المضيف، وبذلك لا يكون المعنى المقصود هو الذي يُذكر عن ذلك التركيب الذي أصبح مثلاً، وهكذا بالنسبة للتركيب الآخر (كل شيء ولا هذا)، ولربما تكون صفة العمومية أكثر من المثل السابق، فيناسب حينها أن يقول المتكلم هذا التركيب في كثير من المواقف، وحتى مع الأطفال، ويتسع المجال مع الكبار حيث يمكن إعادة هذا التركيب في مثل النهي عن أي موقف يراه المتكلم كبيراً، قولاً أو فعلاً، ومن هنا نقول إن (سيبويه) حصر التركيب في معنى حاضر في بطون الكتب، ولم يناقش ذلك ضمن الاستعمال.

ويمكن أن نلاحظ أيضاً المدى التداولي عندما نقف على تقسيمه للكلام وأثر ذلك في فهم معنى الخطاب الذي ينتجه المتكلم، فيمكن القول بأن سيبويه لم يكن ملتفتاً إلى مسألة الاستعمال ولحظة الإنتاج الذي هو المعول في فهم المعنى، فقد قال تقسيماً للكلام في (باب الاستقامة من الكلام والإحالة):

"فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسأتيك غداً. وأما المحال فأن نقض أو كلامك بآخره فتقول: أتيتك غداً وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل،

³ انظر، سيبويه، 1988م، الكتاب، ج 1، من ص 57 إلى ص 66.

وشربت ماء البحر، ونحوه. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيداً يأتيتك، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس" (سيبويه، 1988م، ص 25 و 26).

لقد ضرب مثالا عن المستقيم الحسن بقوله: (أتيتك أمس وسأتيتك غدا) وهنا يمكن أن يصطدم مع حقيقة أن الاستعمال يؤثر على توجيه معنى التركيب؛ إذ يمكن أن يكون المعنى من العبارة التهريب من المخاطب، فيكون ذلك كذبا، وحينها لا يكون الكلام مستقيما من وجهة نظره، ولربما يقصد المتكلم من استعماله هذا التركيب، أن يذكر المخاطب بعبارة قد قالها سابقا، ولو سمعنا العبارة من المتكلم في مقام مختلف، فسوف يبرز معنى آخر يتعلق بالمقام الذي قيلت فيه العبارة، فقد يكون المتكلم في معرض التوبيخ، فالمقام الذي تم إنتاج العبارة فيه يسهم بشكل كبير في توجيه المعنى، وحتى الأداء يؤثر في فهم المقصود أيضا، فلربما كانت النغمة استهزاء، فيكون المعنى: أتيتك أمس وتريدني أن أتيتك غدا؟ فقد يقصد المتكلم أنه لن يأتي غدا عبر الاستنكار الذي أظهره عبر نبرة الصوت، وهكذا يتم إنتاج المعاني من خلال الاستعمال، ولذا لا يصح أن نطلق على الكلام أنه مستقيم حسن دون الأخذ بالاعتبار الملابس التي تحيط به لحظة إنتاجه واستعماله.

وفي تقسيمه الآخر، وصف (سيبويه) جملة (حملت الجبل)، بالكلام المستقيم الكذب، ويمكن التعليق على ذلك بأن الحكم الذي أطلق على الجملة يكون صحيحا حين تنطبق الجملة على مصداق خارجي واحد، وهو كون شخص ما يرفع جبلا من الجبال المعروفة، إذ لا يستطيع أحد من البشر فعل ذلك، ولكن لا يصح أن يكون هذا التركيب فاسدا وكاذبا بالمطلق، إذ يمكن أن يكون المعنى شيئا آخر، ونعرف ذلك من خلال إنتاج الجملة في لحظة استعمالها، فقد يكون المتكلم معبرا عن مدى تحمله لمسؤوليات جسام، وحينها لن يكون الكلام كاذبا، كما يمكن أن نفهم تفاصيل كثيرة إن تمكنا من معرفة البيئة الثقافية التي ينتمي إليها منتج هذه الجملة، ومعرفة خلفية الأحداث التي دعت له لفظ هذه العبارة.

وأما جملة: (شربت ماء البحر)، فهي مثل الجملة السابقة حيث وصفها بكلام مستقيم كاذب.

ويمكن التعليق على ذلك بأن تكذيب الجملة يكون في محله إذا اقتصرنا على اعتبار البعد المعجمي والتركيب فحسب، فالبحر هو ذاك الماء المالح الذي لا يمكن تصوّر شربه مطلقا، فهذا كلام كاذب، وأما التركيب، فالجملة فعلية متكاملة من فعل وفاعل ومفعول به ومضاف إليه، ولذا حكم عليها (سيبويه) بأنها كلام مستقيم، ولكن النظر إلى الجملة عبر المنهج التداولي يغيّر الحكم عليها من جهة الفكرة وسلامتها، فالبحث عن تفاصيل إنتاج هذه العبارة يسهم في فهم المعنى المقصود منها، فقد يكون المعنى تعبيراً عن مدى الشعور بالفشل لدى المتكلم كأن يصبح عاجزاً عن صنع أمر ما، وحينها سيكون الكلام مستقيما وصادقا، إلى درجة أن التعبير المباشر بالقول أنه فاشل، لن يعبر عن مدى الشعور بهذا الفشل والإحباط الذي ترسمه جملة (شربت ماء البحر).

3- التخمين.

يلعب التخمين دورا مهما في المعرفة، وهو توقع يدفع باتجاه ما للتأكد من كون المعلومة صحيحة، فعندما نتوقع معنى المتكلم، سيحسن من قدرتنا على فهم الخطاب الموجه إلينا⁴، وقد كان يعتمد (سيبويه) إلى التخمين أحيانا، حيث لم يقتصر على إيقاف الجملة على معنى واحد دائما، وهذا من صميم التحليل التداولي، فيبدو أنه يعمد إلى تشكيل فرضية وتخمين حول التراكيب التي سمعها من العرب، ويدخل التخمين ضمن المعرفة الخلفية الاجتماعية وعلى التوقعات المشتركة لتقييم ما هو المقصود من هذه العبارة

⁴ انظر إلى دور التخمين والتوقع في تحليل اللغة ومن ثم فهم المنتج اللغوي: GUMPERZ, J. 2002, Discourse strategies, p.3، ص 171

أو تلك. فتميّز عمله باستحضار اللغة التي يستعملها الناس، وعندما يعمل على التخمين، فإنه يضع التركيب في سياق استعماله وإن كان افتراضيا. فما صنعه يخرج عن كون اللغة ذات قوالب ثابتة محددة المعنى خالية من تأثير السياق⁵. ومن هذه الأمثلة التي حاول تملّس المعنى الذي يقصده المتكلم:

قوله: "مررت: برجل راعع بل ساجد، إما غلط فاستدرك، وإما نسي فذكر" (سيبويه، 1988م، ج1، ص430)، فقد أعمل عقله في هذا التركيب اللفظي، وخمّن أنّه يحتمل احتمالين، مما يعني أنه لم يسلم بأن هذا التركيب معقود لمعنى ما، وإنما تصوّر له أكثر من معنى، ولكنه اقتصر على احتمالين، بينما يمكن أن يكون هذا الاستدراك لأكثر من ذينك السببين، فلربما أراد المتكلم الاستهزاء بالرجل، كأن يكون جسمه في الركوع قريبا من الأرض، أو قد يكون قصيرا جدا حتى يحسبه آخرون أنه ساجد، وغير ذلك.

وقال أيضا: "مررت برجلين غيرك، فإن شئت حملته على أنهما غيره في الخصال وفي الأمور، وإن شئت على قوله: مررت برجلين آخرين إذا أردت أنه قد ضم معك في المرور سواك، فيصير كقولك: برجل آخر، إذا تثنى به" (سيبويه، 1988م، ج1، ص431)، ونلاحظ في المثال أنه قد تصوّره في استعمال ما، فخمّن أمرين، إما أن يكون القائل يريد الاختلاف في الخصال، وإما أن يريد الاختلاف في الشخصين أنفسهما، وهذا صحيح، ولكن يمكن أن يُضاف أكثر من ذلك، وتعتمد هذه الإضافة على أمور عديدة، ومن ذلك المقام الذي تم إنتاج العبارة فيه، فقد يكون الشخص المعني شجاعا، فيتباهى بشجاعته، فيقال له: مررت برجلين غيرك، وهذا تخمين آخر غير ما افترضهما (سيبويه)، كما أنّه قد يكون الأمر مدحا، وقد يكون ذما.

ويضرب مثالا آخر في باب (المبدل من المبدل منه) بقوله: "وذلك قولك: مررت برجل حمار. فهو على وجه محال، وعلى وجه حسن. فأما المحال فإن تعنى أن الرجل حمار، وأما الذي يحسن فهو أن تقول: مررت برجل، ثم تُبدل الحمار مكان الرجل فتقول: حمار، إما أن تكون غلطت أو نسيت فاستدركت، وإما أن يبدو لك أن تُضرب عن مرورك بالرجل وجعل مكانه مرورك بالحمار بعد ما كنت أردت غير ذلك" (سيبويه، 1988م، ج1، ص439)، ونلاحظ ضعف مستوى التخمين، فقد ركن (سيبويه) إلى إلصاق العبارة بالمبدل، واستبعد أمورا قد تكون واردة في الاستعمال، فلا يمنع أن ندّعي خلاف ما جعله محالا، إذ يمكن أن يكون مراد المتكلم أن الممرور به يشبه الحمار في جهله، كما يمكن أن يكون المعنى مختلفا عن ذلك، كأن يكون المشبه صديقا للمتكلم، فيصف صديقه بالحمار من باب المزاح، فيكون المعنى أنّ المخاطب يرغب بمواصلة توثيق العلاقة بالمخاطب أكثر من السابق وقد يكون المعنى عند شخص آخر إشارة للقوة التي يتمتع بها. ونخلص مما تقدّم أن (سيبويه) يتراوح في مستوى التخمين من تركيب إلى آخر، فإن ضعف مستوى التخمين عنده، فإن المدى التداولي يكون بعيدا عنده، وإن قوي، فإن المدى يكون قريبا.

4- المتكلم.

اعتمد المنهج التداولي على معرفة تفاصيل المتكلم، وهذا عنصر أساس يسهم في معرفة الكلام الذي أنتجه، ويمكن أن نلاحظ عناية (سيبويه) بالمتكلم الذي ينتج الخطاب، وقد حاول الحصول على قواعد الخطاب عند العرب (المتكلمون) الذين يدرس لغتهم، وبرز هذا الأمر في بعض عباراته، ومنها:

⁵ للتوسع في هذه الفكرة، انظر المصدر السابق، ص171

"ومن ذلك إنشاد بعض العرب قول الأعشى" (سيبويه، 1988م، ج1، ص 183)

"وقال رجل من بني ضبّة... وقال رجل من الأنصار" (سيبويه، 1988م، ج1، ص 185)

"وسمعنا من العرب من يقول..." (سيبويه، 1988م، ج1، ص 243)

"ومن ذلك قول العرب" (سيبويه، 1988م، ج1، ص 244)

"وحدثنا من لا نتهم أنه سمع من العرب" (سيبويه، 1988م، ج1، ص 245)

"وحدثنا من يوثق به أن بعض العرب قيل له..." (سيبويه، 1988م، ج1، ص 255)

"ومن العرب من يقول: متعريض، ومنهم من يقول: صادق والله. وكلّ عربي" (سيبويه، 1988م، ج1، ص 273)، ونلاحظ أنّ (سيبويه) لم يحاول أن يبرز شخصية المتكلم وصفاته بشكل دقيق، أو السياق الذي أنتج كلامه، إذ توضح الكثير من عباراته أنه يتحدث عن كلام العرب بشكل عام، حتى كأنه يتكلم عن شخصيات مبهمّة وكأنها نكرة من العرب، ومع أنه يذكر أسماء المتكلمين أحياناً، إلا أنه يذكرها دون تفاصيل شخصيتها، ولا يبرزها في المقام الذي أنتجت فيه العبارة، وهذا يضاعف فرصة فهم المقصود بشكل كبير، فإيهام شخصية المتكلم، يخفي بعض ما يريده المتكلم من كلامه؛ لأنه سيكون التركيز على العبارة لا على المعنى المقصود، ومع أهمية العبارة في تحديد المقصود، إلا أنها لا تقف على البعد المعجمي، بل تحتاج إلى التفاصيل التي تتعلق بالإنتاج، ومن ذلك شخصية المتكلم، فقد يتم إنتاج العبارة نفسها من أكثر من متكلم، وفي كل مرة يكون المقصود منها مختلفاً، فلم يكن (سيبويه) يعنى بذكر ما يتعلّق بشخصية المتكلم أثناء إنتاجه العبارة، فمثلاً يقول:

"وجعلوا النون مكسورة كحالها في الاسم، ولم يجعلوها حرف الإعراب إذ كانت متحركة لا تثبت في الجزم. ولم يكونوا ليحذفوا الألف لأنها علامة الإضمار والتنثنية في قول من قال: أكلوني البراغيث، وبمنزلة التاء في قلت وقالت، فأثبتوها في الرفع وحذفوها في الجزم كما حذفوا الحركة في الواحد" (سيبويه، 1988م، ج1، ص 19)، فنلاحظ قوله:

(وجعلوا، ولم يجعلوها، ولم يكونوا ليحذفوا، فأثبتوها، فيشير إلى أن ما يقدمه من قواعد مأخوذ من العرب، فهم يجعلون، وهو يحذفون، وهو يثبتون)، حيث لم يول عناية بربط شخصية المتكلم بالموقف الإنتاجي، ويبدو أنه أولى اهتمامه بالجانب الشكلي للكلام أكثر من المعنى الذي يختلج صدر المتكلم، ومن ذلك أيضاً قوله:

"والوقف قولهم: الضرب في الأمر... والفتح في الحروف التي ليست إلا لمعنى وليست بأسماء ولا أفعال، قولهم: سوف، وثم. والكسر فيها قولهم في باء الإضافة ولامها: بزيد، ولزيد... والوقف فيها قولهم: من، وهل، وبل، وقد" (سيبويه، 1988م، ج1، ص 17)، فنلاحظ كلمة (قولهم) التي يعني فيها (العرب)، دون أن يولي عناية بذكر تفاصيل شخصية هذا القائل، وهذا ما لا تتوقف عنده التداولية، إذ تبحث في دقائق حالات المتكلم ما أمكن ذلك، كأن تلاحظ عمره، ومكانته الاجتماعية، ووضع النفس، والموقف الذي يعيشه، وأسلوب تقديم العبارة للمخاطب وغير ذلك مما لم يعنى به (سيبويه).

5- المخاطب.

إذا كان المتكلم ينتج العبارة، فإن المخاطب يستقبلها ويحاول فهم المقصود منها، وتشكل كفاءة⁶ المخاطب جزءاً مهماً في عملية فهمه للمعنى، وتتمثل كفاءته في أمور عديدة، منها العمر والثقافة ومنصبه ووضعه الاقتصادي، وجميع ما يرتبط بحياته ويؤثر على فكره ونفسيته، فلكل ذلك أثر كبير في بناء إمكاناته اللسانية من حيث الإنتاج والتأويل ومن ثم في فهم الخطاب الموجّه إليه، ولم يغفل (سيبويه) عن أهمية المخاطب، ولكنّه قدّمه بشكل مبهم، إذ لم يبيّن مقدار براعته في فهم المقصود، كما فعل حين ذكر المتكلم في (الكتاب)، حيث لا يُعرف إن كان ذكراً أو أنثى، كبيراً أو صغيراً، من المختصين في اللغة أم من عامة الناس، وهذا يصعب الأمر في فهم المعنى، ومن العبارات التي لاحظنا فيها إشارته للمخاطب دون أن يستعرض شيئاً من شخصيته، قوله:

"وقال الآخر، عمرو بن شأس:

بني أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا

إذا كانت الحو الطوال كأنما كساها السلاح الأرجوان المضلعا

أضمرَ لعلم المخاطب بما يعني، وهو اليوم. وسمعت بعض العرب يقول: أشنعا ويرفع ما قبله، كأنّه قال: إذا وقع يوم ذو كواكب أشنعا" (سيبويه، 1988م، ج1، ص47)، فقد اكتفى (سيبويه) بعبارة (لعلم المخاطب بما يعني)، دون أن يتعرّض لتفاصيل شخصيته، وهذا مالا تقف عنده التداولية⁷، بل تحاول الدخول إلى تفاصيل المخاطب وكل ما يرتبط فيما يشكل كفاءته. ونلاحظ أنه يعتني بالتركيب وكأنه هو الأصل لفهم المخاطب دون أن يلتفت إلى قدرات المخاطب ونوع ثقافته، وشكل البيئة التي ينتمي إليها إن كانت منغلقة على نفسها بحيث يتمثل بثقافة بيئته الخاصة أم أنه يعيش في بيئة عربية متنوعة اللهجات، فمثلاً يمكن ملاحظة ذلك عندما يقول في باب الإخبار عن النكرة بنكرة: "وذلك قولك: ما كان أحد مثلك، وما كان أحد خيراً منك، وما كان أحد مجترئاً عليك. وإنما حسن الإخبار ههنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، لأن المخاطب قد يحتاج إلى تعلمه مثل هذا" (سيبويه، 1988م، ج1، ص54)، فنلاحظ ثقافته إلى أن المخاطب قد يحتاج أن يعلمه المتكلم مثل ذلك، فقد انصب تركيزه على العبارة دون أن يلتفت إلى التفاصيل المرتبطة بشخصية المخاطب.

الخاتمة:

تم إنتاج الكثير من الدراسات النحوية في أروقة الجامعات والكليات التي تعنى بالدرس اللغوي، وقد كانت بعض الأسماء مهيمنة على الدرس النحوي بشكل كبير كاسم (سيبويه)، حتى يصعب الخروج عن عباؤها، مما أضعف -في نظري- الدرس العربي اللغوي، لا سيما أن هناك مناهج حديثة ذات فعالية جيدة لفهم اللغة التي منها المنهج التداولي.

وجاءت هذه الدراسة المختصرة لتلقي الضوء على المدى التداولي الذي كان يعمل عليه العالم النحوي (سيبويه)، وقد وجدنا أنه يلامس المنهج التداولي من الناحية التطبيقية لا من ناحية التنظير والتأسيس، ولكنه يفتقر إلى الكثير من الجوانب التداولية، وكان كتابه (الكتاب) يحتوي على بعض الجوانب التداولية بشكل بسيط، حيث رأينا عنايته القليلة ببعض الجوانب غير اللغوية التي أولتها التداولية أهمية كبيرة في فهم المعنى، فما لاحظناه هو عدم توفقه على الأمور غير اللغوية خاصة،

⁶ انظر: أوريكيوني. 2014م، في التداولية المعاصرة والتواصل، ص52.

⁷ انظر: أوريكيوني. 2014م، في التداولية المعاصرة والتواصل، من ص 62 إلى ص 67.

بل يمرّ عليها دون تفصيل وتحليل، وهذا لا يساعد على فهم المعنى للعبارة بشكل دقيق، فقد كان أكثر اهتمامه منصبا على الجانب اللغوي، ومن هنا فقد رأيت أن التوسع في الجوانب غير اللغوية -فضلا عن الجوانب اللغوي وفق المناهج اللغوية الحديثة- أمرٌ مفيدٌ في فهم ما يقصده المتكلم، وأما التركيز على المادة اللغوية، فهو أمر غير كاف لتوضيح المعنى.

لقد دخلت الدراسات اللسانية الحديثة ومنها (التداولية) إلى بعض أروقة الجامعات العربية بشكل غير واسع، ولربما كان من المناسب تكثيف حضورها، لتكون جنبا إلى جنب الدراسات اللغوية القديمة حتى يتم تطويرها، عبر إدخال مثل المنهج التداولي في الدراسة الجامعة وما قبلها من الدراسات الدنيا، ليكون هذا المنهج في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، وأظن ذلك معينا للطلاب في المراحل المختلفة في فهم ما يسمعون ويقرؤون بشكل جيد، ويعينهم على التحليل والإنتاج اللغوي الواضح والمؤثر، وفي هذه الخاتمة نستعرض أهم النتائج التي توصلنا إليها وبعض التوصيات:

أهم النتائج:

- 1- لاحظنا الأثر السلبي لتقديس درس العربي القديم لا سيما الذي تتقدمه أعلام ك(سيبويه) حتى زهد الكثير من الباحثين عن الدراسات اللغوية الحديثة اكتفاء بالمقدس القديم.
- 2- يقترب (سيبويه) من درس التداولي أحيانا ضمن مدى محدود، ولكنه يعود إلى اعتماد المعنى المعجمي للكلمة أو المعنى المجرد الأولي للتركيب.
- 3- كان حرص (سيبويه) في كتابه (الكتاب) على لغة العرب كبيرا، حيث كان يتجنب ما لم يثبت عنده أنه عربي، ولكن لم يتوسع في فهم اللغة ضمن استعمالها.
- 4- كان إهمال الجوانب غير اللغوية عند (سيبويه) واضحا في فهم التركيب أو الإنتاج اللغوي

أهم التوصيات:

- 1- دراسة التراث اللغوي في إطار الدراسات اللغوية الحديثة، والاستفادة منها.
- 2- العمل على دراسة التراكمات ضمن المنهج التداولي، بحيث لا يبقى التركيب مفهوما مجردا، إنما ينبغي النظر إليه في إطار استعماله.
- 3- دراسة أثر المعطيات اللغوية وغير اللغوية في فهم معنى الإنتاج اللغوي.
- 4- نقترح معاودة النظر في درس النحوي الذي يُقدّم لطلابنا الذين يدرسون اللغة العربية، ليكون ضمن المنهج التداولي الذي يدرس اللغة في الاستعمال.

والحمد لله رب العالمين.

د. غازي جاسم آل مشهد

1444-9-18هـ

المصادر والمراجع

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. 2002م. المقدمة. تحقيق درويش جويدي. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. لبنان.
- توماس، جيني. 2010م. المعنى في لغة الحوار - مدخل إلى البراجماتية (التداولية). ط1. ترجمة: نازك إبراهيم عبد الفتاح. دار الزهراء. الرياض. السعودية.
- جيمس، وليم. 2014م. البراغماتية، ط1. ترجمة: وليد شحاته. دار الفرق. دمشق. سورية.
- سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. 1988م. الكتاب، ج1. ط3. تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. مصر.
- ليتشس، جيوفري. 2013م. مبادئ التداولية. ترجمة عبد القادر قنيني. أفريقيا الشرق. الدار البيضاء. المغرب.
- أ. مولزك. زيلتمان-ك. أوريكيوني. 2014م. في التداولية المعاصرة والتواصل. ترجمة محمد نظيف. أفريقيا الشرق. الدار البيضاء. المغرب.

GUMPERZ, J. 2002, Discourse strategies, p.3

جميع الحقوق محفوظة © 2023، الدكتور/ غازي جاسم آل مشهد، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي

(CC BY NC)

Doi: <https://doi.org/10.52132/Ajrsp/v5.49.4>